12. أسباب انحدار المماليك في مرحلتهم الثالثة والأخيرة

ما بين معركتي المنصورة (1250م) وإمبابة (1798م) :

المعركتان كلاهما دارت بين الجيش الفرنسي والجيش المملوكي وإن كان الجيش المملوكي في معركة المنصورة كان بقيادة أيوبية ، وانتصر المماليك في معركة المنصورة علي الجيش الفرنسي ، بينما انتصر الجيش الفرنسي في معركة إمبابة علي المماليك ، والفاصل الزمني بينهما 548 سنة ، والفرق هائل بين المعركتين ، إنه فرق يوضح مستوي التدهور في أحوال مصر وأحوال المماليك أنفسهم ، ولقد ذكرنا العديد من الانتصارات الساحقة التي قام بها المماليك البحرية والمعارك الشرسة التي قام بها المماليك البرجية ، فلماذا لم يتمكن مماليك العصر العثماني من تحقيق بعض هذه الانتصارات ، وإن كان المؤرخ الذي وصف معركة الأهرام لم ينكر عليهم الشجاعة والبسالة بل قال بالحرف "وقد نشعر بالعطف علي ما أظهره المماليك من الإقدام والبسالة عند مهاجمتهم لنابليون" ، ومن هنا يتضح أن صفة الشجاعة في القتال لم تتأثر مع الزمن ولكن الذي اختلف هو الجهل والتخلف الذي سنحاول التعرف علي أسبابه

الجهل بالموقف الدولي :

ولكن دعنا أولاً نتعرف علي مستوي وعي إبراهيم بك ومراد بك في ذلك الوقت لنتأكد من الاختلاف الرهيب بين مستوي المماليك الأوائل إذا جاز التعبير ومستوي هؤلاء المساكين ، وقد اخترت لك فقرة من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه : السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا ، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟ قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلانه كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ، ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات

كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم

هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن .....) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة – -- – من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه ،

<u>التدرج في الانحدار من المماليك البحرية فالبرجية فالعثمانية :</u>

من المؤكد أن هذا الانهيار في جميع المجالات لم يحدث فجأة بعد عصر سلاطين المماليك البحرية بل تدرج شيئاً فشيئاً ، وكانت هناك عوامل عديدة اجتمعت علي انخفاض مستوي المماليك وتغير برامج إعدادهم مع الوقت وعدم الاهتمام الكافي برفع مستواهم في كافة المجالات وبالتالي انعكس ذلك علي مصر بشكل عام وغابت شمس الحضارة عنها ولم يتبق بها سوي آثار تدل علي وجودها في يوم من الأيام ، وسوف نستعرض معاً عوامل السقوط وأسباب الانهيار ونبدأ بالتعليم

<u>الانخفاض الحاد في عدد المدارس :</u>

لاحظناً معاً كيف لم يتمكن ابن بطوطة من حصر عدد المدارس في مصر لكثرتها علي حد قوله وكيف كان اهتمام سلاطين المماليك البحرية بالتعليم وبناء المدارس وكيف كانت مصر في عصرهم مركزاً للعلم والعلماء ، وذكرنا أن العلم يبني الإنسان ومن ثم تزدهر الآداب والعلوم والهندسة والفن وتحدث الطفرات الحضارية علي يديه ، وربما كان برنامج إعداد المملوك سبباً مهماً في تقديره لقيمة العلم والعلماء ومع مرور الزمن اختل هذا البرنامج حتي اختفي تماماً ففقد المماليك إحساسهم بأهمية العلم والعلماء علي ما يبدو وخاصة بعد فقدهم للسلطنة وخضوعهم للحكم العثماني الذي حدث في عهده انخفاض حاد في عدد المدارس ولولا وجود الأزهر الشريف في ذلك الوقت لما وجد من يعلم أو يتلقي العلم في مصر ، بل اقتصر دوره علي العلوم الدينية فقط (والأزهر استطاع في العصر العثماني أن يحتفظ بمكانته العلمية السامية وأن يقوم بأعظم دور في نشر الثقافة العربية الإسلامية وغدا الأزهر أيام العثمانيين ملاذاً لعلوم الدين واللغة ومعقلاً حصيناً للغة العربية في وسط المحيط التركي بل إنه مكن أبناء العروبة من مغالبة لغة الأتراك ومقاومتها وردها عن التغلغل في المجتمعات العربية – – وتمتع الأزهر في العصر العثماني

بمركز انفرادي أكد قيادته وزعامته للحياة العقلية في مصر وفي العالم الإسلامي)[132] وهكذا أصبح يقال منذ ذلك الوقت (ويتردد علي الألسنة أن للمسلمين قبلتين قبلة دينية هي الكعبة الشريفة في مكة المكرمة وقبلة علمية هي الأزهر الشريف في القاهرة)[133] ولم تعد هناك مدارس تعد أطباء أو مهندسين وسائر المهن الأخري التي كانت منتشرة في عصر المماليك البحرية واستمرت في عصر المماليك البرجية ، حتي أنه يقال أن السلطان العثماني قد جرد مصر من كل موهوبيها في كافة المجالات وأخذهم معه إلي عاصمة دولته والله أعلم ، بل إن من أكثر الأمثلة وضوحاً علي انخفاض المستوي الثقافي العام ندرة وجود مؤرخين علي مستوي عالي خلال هذه الفترة وعندما تقرأ كتاب مؤرخو مصر الإسلامية ستجد أنه لم يكن هناك مؤرخون علي مستوي من سبقهم طول العصر العثماني في مصر سوي محمد بن أبي السرور البكري ثم بعد ذلك عبد الرحمن الجبرتي الذي عاصر وصول الحملة الفرنسية وقيام أسرة محمد علي وقد كان ذلك نتيجة لتضاءل التراث المصري التاريخي (ومن ثم فإنا نجد التراث المصري التاريخي يتضاءل خلال العصر العثماني وسيتحول معظمه إلي مؤلفات وملخصات قاصرة تتعلق معظمها بهذا العصر وتعداد سلاطين آل عثمان ونوابهم بمصر وقلما تعثر إلي جانب ذلك بروايات ضافية عن أحوال مصر ومجتمعاتها في ذلك العصر)[134] ويقول المؤرخ محمد عبد الله عنان أيضاً (كان من الطبيعي أن تخبو النهضة الأدبية وأن تتحطم الأقلام بمصر عقب الفتح العثماني ومن ثم فإنا نري النهضة التاريخية التي ازدهرت في القرن التاسع والتي خلفت الموسوعات العظيمة في تاريخ مصر الإسلامية تخبو بدورها ولا نجد بعد ابن إياس مؤرخين مصريين يتناولون تاريخ بلادهم بمثل الإفاضة والسعة والتبحر)[135] وقد كان التراجع الحضاري الذي شهدته الأمة الإسلامية وإغلاق المدارس في مصر وسياسة العزلة وتوقف البحث العلمي كل هذا أدي إلي عدم وجود مؤرخ أو أديب علي مستوي لائق

تراجع القدرات العسكرية مع فقد الاستقلال وحدوث التبعية :

ومع تراجع دور العلم وانحدار مستوي برامج إعداد المماليك أو اختفاءها تماماً انتشر الفساد في دولة المماليك البرجية وبالتالي انخفضت الكفاءة القتالية للمماليك مما أدي إلي ضعف دولتهم وعدم قدرتها علي تحمل مسئولية قيادة الأمة الإسلامية فلم تعد دولتهم قادرة علي القيام بالتزاماتها ، مما جعلها هدفاً سهلاً للبرتغاليين حيث قاموا بالقضاء علي طرق التجارة المملوكية في البحر الأحمر والمحيط الهندي

---

[132] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة 66 [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف]

[133] تاريخ المدارس في مصر الإسلامية (د عبد العظيم رمضان) صفحة 66 [الجامع الأزهر ودوره في نشر الثقافة العربية الإسلامية – الأستاذة الدكتورة سيده إسماعيل كاشف] صفحة 66

[134] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 169

[135] مؤرخو مصر الإسلامية (محمد عبد الله عنان) صفحة 168

وخاصة بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وكانت من نتائجه تراجع القوة الاقتصادية بالإضافة إلي تراجع القوة العسكرية وانتشار الفساد وكل ذلك أدي إلي حضور العثمانيين ليقضوا علي هذه الدولة ويتسلموا قيادة العالم الإسلامي ثم قيامهم بالعديد من الحروب التي استعانوا فيها بقوات مملوكية تحت قيادة عثمانية ولكنها لم تكن في الغالب حروب ناجحة وأدت إلي دخول الدولة العثمانية نفسها في مرحلة اضمحلال أدي إلي انتشار الوهن والتخلف في العديد من الولايات التابعة لها ومن بينها مصر مما أطمع فرنسا وإنجلترا في شغل الفراغ الذي تركته

كثرة تغيير الولاة العثمانيين في مصر والتنافس بين المماليك :

استمرت مصر تحت الحكم العثماني ما يقرب من ثلاثة قرون " 288 سنة تقريباً " (تتابع علي مصر في هذه الفترة "136" من الولاة عاصروا "21" من السلاطين العثمانيين)[136] ، وهو يعتبر عدد كبير من الولاة نسبياً إذا قارناه بالفترة الزمنية وعدد السلاطين ، وهو مؤشر لسياسة الدولة العثمانية في الحرص علي عدم استقرار الوالي لفترة طويلة تمكنه من تحقيق أي طموحات شخصية إن وجدت ، وقد أبقي السلطان العثماني علي المماليك حتي تتعدد القوي المتنافسة في مصر فلا يستقر الأمر لأحد وقد وضع سليم الأول قاعدة لنظام الحكم في مصر (وهي إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى ، الأولي سلطة نائب السلطان " الوالي " والثانية سلطة رؤساء الجند ووضع أيضاً نواة السلطة الثالثة وهي سلطة البكوات المماليك الذي رجع إليهم حكم مديريات القطر المصري)[137] ، ويؤكد المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي أن هذا النظام في الحكم لم يستمر كما وضعت قواعده من عهد الفتح العثماني (ولم يكن للديوان الكبير ولا للديوان الصغير عمل منظم في إدارة الحكومة بل تركت البلاد تتقسمها رؤساء الجند والولاة وانتهز المماليك فرصة استمرار التنازع والحروب بين الفريقين فأخذوا يعملون علي الانفراد بالحكومة فنظام الحكم السياسي في مصر قد تطور مع الزمن وانتهي التنافس بين السلطات الثلاث إلي تغلب البكوات المماليك ، حدث هذا التطور في النصف الثاني من القرن السابع عشر فاستأثر المماليك بالنفوذ والحكم وساعدهم علي ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر بسبب حروبها المتواصلة واختلال شئونها الداخلية وفساد نظام الحكم فيها وزاد في نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم)[138] ومن هنا عاد نفوذ المماليك مرة أخري في مصر ولكن ليست في صورة سلاطين ولكن في صورة بكوات ومع الوقت ازداد نفوذ المماليك حتي أصبحوا قادرين علي عزل الوالي العثماني والإرسال للسلطان بطلب تغييره حيث يقوم شخص يطلقون عليه الأودة باشا بالذهاب إلي الوالي في القلعة مقر الحكم ويقول له الكلمة الشهيرة (انزل يا

---

[136] موسوعة حكام مصر (د ناصر الأنصاري) صفحة 104

[137] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج1 صفحة 29

[138] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج1 صفحة 35

باشا) ويتم تعيين قائمقام لحين حضور والي جديد ، وأصبح منصب شيخ البلد هو أهم منصب في مصر والذي يشغله أحد أمراء المماليك (البكوات) ، وأصبحوا يتنافسون فيما بينهم للوصول لهذا المنصب (قال الرحالة فانسليب يصف ما شاهده في مصر سنة 1672 م من استئثار المماليك بالحكم : " إن كلمة البكوات في الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا " الوالي العثماني " يخالف لهم أمراً وكانوا يملكون عزله)139

عوامل سقوط المماليك ارتبطت بعوامل سقوط الدولة العثمانية نفسها :

يمكن تقسيم تاريخ الدولة العثمانية كمعظم الدول إلي عصرين رئيسيين ، عصر ازدهار وتقدم وحضارة وقوة وعصر اضمحلال وتخلف وجمود وضعف ، وقد بدأ هذا التحول تقريباً بين العصر الأول والعصر الثاني بعد عهد السلطان سليمان القانوني[140] أي بعد فترة قصيرة من ضم مصر للدولة العثمانية ، وإذا تأملنا معاً العصر الأول والعصر الثاني وعلاقته بمصر سنجد أن مصر إلي حد كبير لم تنعم بعصر ازدهار العثمانيين بل كان انضمامها إليهم مع بداية عصر اضمحلالهم تقريباً ، وبعبارة أخري لم تذق مصر حلاوة العثمانيين ولكنها تجرعت مرارتهم ،

قد تكون الأسباب مختلفة :

ربما تكون الأسباب التي أدت إلي سقوط الدولة العثمانية أسباب مختلفة عن أسباب سقوط الدول الإسلامية التي كانت قبلها فبالرغم من أن هذه الدولة قد تم تأسيسها علي أسس إسلامية أدت إلي قيامها بأعمال جليلة قدمتها للأمة الإسلامية (كحماية الأماكن المقدسة من مخططات الصليبية البرتغالية ومناصرة أهالي الشمال الإفريقي ضد الحملات الصليبية الأسبانية وغيرها ، وإيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية وإبعاد الزحف الاستعماري عن ديار الشام ومصر وغيرها من الأراضي الإسلامية ومنع انتشار المذهب الاثنا عشري الشيعي الرافضي إلي الولايات الإسلامية التابعة للدولة العثمانية ومنع اليهود من استيطان فلسطين ودورها في نشر الإسلام في أوروبا)[141] ويكفي هذه الدولة فخراً أنها قضت تماماً علي العدو التقليدي والرئيسي للأمة الإسلامية وهي الدولة البيزنطية وتم فتح القسطنطينية التي بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتحها حيث قال " لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش "[142])[143] وبالرغم من كل هذه الإنجازات الرائعة التي حققتها

---

[139] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج1 صفحة 35 ، 36

[140] (اتفق المؤرخون علي أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام 974 هـ وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان) وكانت هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو عام 979 هـ أزالت السيادة العثمانية عن البحر المتوسط (من كتاب الدولة العثمانية – عوامل النهوض وأسباب السقوط) (د علي الصلابي) صفحة 635

[141] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 6

[142] رواه أحمد في مسنده

[143] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 114

الدولة العثمانية إلا أنها عندما سقطت كان لسقوطها أسباباً مختلفة ، فمن السلبيات التي أدت إلي إضعاف الحكم لدي هذه الدولة (إهمال اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم والحديث الشريف في آخر عهدها وعدم الوعي الإسلامي الصحيح وانحرافها عن شرع الله تعالي وتأثرها بالدعوات التغريبية)[144] وكل هذا بالطبع كان في عصر الاضمحلال الأخير لهذه الدولة الكبري وكل هذه الأمور قد وردت في كتاب الدكتور علي الصلابي الذي أوضح فيه عوامل النهوض وأسباب السقوط للدولة العثمانية (- ويوضح للقارئ كيف وضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً علي طريق نهايتها كدولة إسلامية فعلمنت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية وابتعدت الدولة عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد وبذلك سحب من الدولة العثمانية شرعيتها من أنظار المسلمين - - وكيف هيمن رجال التغريب علي الدولة العثمانية في زمن السلطان عبد العزيز وعندما تعرض لكثير من مخططاتهم عزلوه ثم قتلوه)[145] ، (وكيف أصيبت العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشي والتقريرات وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلي الله عليه وسلم ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد)[146] ، ويوضح الكتاب أيضاً كيف (فقدت الأمة قدرتها علي المقاومة والقضاء علي أعدائها وكيف استعمرت وغزيت فكرياً نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية وجهلها بسنة الله في نهوض الأمم وسقوطها)

المرحلة الأخيرة للمماليك :

وهكذا شمل الضعف والتخلف والتراجع الحضاري كل مكونات الدولة العثمانية ومن بينها المماليك بالطبع ، حتي صار المماليك في حالة من الجهل بما يدور في العالم حيث نهضت العديد من الدول وتقدمت في جميع المجالات وازدهرت الحضارة الأوربية وتخلفت مصر ودخلت في نفق مظلم ولم تنتبه إلا عندما وصل جيش نابليون يطرق أبوابها بعنف ، ولم تتمكن الدولة العثمانية من طرد الحملة الفرنسية من مصر إلا بمساعدة الإنجليز ، ثم وصل بعد ذلك محمد علي باشا للحكم ليقضي نهائياً علي البقية الباقية من المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة ، ولأن النهاية كانت علي يد محمد علي فتجدر الإشارة إليه وإلي علاقته بالمماليك وكيف وصل للسلطة وتخلص منهم علي هذا النحو

عندما تولي محمد علي باشا حكم مصر :

خمس سنوات تقريباً (1801-1805م) هي الفترة بين جلاء الحملة الفرنسية وبين تولي محمد علي باشا حكم مصر وكانت أحوال مصر خلال هذه السنوات الخمسة في غاية الاضطراب فقد تصارعت عدة

---

[144] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 6

[145] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 7

[146] الدولة العثمانية (د علي الصلابي) صفحة 8

قوي علي الحكم والطريف أن محمد علي شخصياً كان وراء هذه الاضطرابات والعقل المدبر لها أو علي الأقل لمعظمها فكان يستخدم جميع الوسائل المتاحة من قوة ودهاء ليضمن عدم سيطرة أحد الفرق المتصارعة وعدم استقرار الأمور لأي فريق منهم في مصر كما كان يتقرب من الزعامة الشعبية ويراهن عليها فالشعب هو القوة الباقية التي يمكن أن تمنحه حكم مصر وسط كل هذه الصراعات وكانت الحملة الفرنسية قد أشعلت روح الجهاد في الشعب المصري وتسببت في إفاقته من سباته العميق ربما دون أن تقصد ولكن من هو محمد علي وما هي الأساليب التي استخدمها ليصل إلي حكم مصر وما الذي دار خلال هذه السنوات الخمسة ؟

ولد محمد علي سنة 1769 م147 ونشأ بمدينة قولة من ثغور مقدونيا وكان منذ صغره يبدو عليه النبوغ والجرأة واقتحام المخاطر وروح المغامرة منذ التحق بالجيش وكان يميل إلي حل المواقف والمشاكل الصعبة بطرق غير تقليدية تعتمد علي الذكاء الحاد وسرعة البديهة وانتهاز الفرص المناسبة بغض النظر عن أي اعتبارات أخري ، ومارس محمد علي لفترة تجارة الدخان مما جعله يكتسب خبرة كبيرة في المسائل التجارية والاقتصادية وكان لا يعرف القراءة والكتابة

ثم ترك محمد علي تجارة الدخان وعاد مرة أخري إلي الحياة العسكرية وعندما قام السلطان العثماني بتجميع جيش كبير لقتال الحملة الفرنسية في مصر طلب من كل حاكم ولاية أن يرسل قوة لتنضم إلي هذا الجيش (صدر الأمر إلي متصرف قولة بتقديم ما لديه من الجنود فألف كتيبة من ثلثمائة جندي انضم محمد علي في سلكها)148 ووصلت هذه القوة مع مثيلاتها تحت قيادة حسين قبطان باشا إلي أبي قير في شهر مارس سنة 1801 م علي متن السفن العثمانية ومنذ ذلك التاريخ شهد محمد علي كل الأحداث وحتي جلاء الحملة الفرنسية وكان محمد علي من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم (وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ)149

وعندما تقرأ عن الأحداث التي مرت بها مصر خلال السنوات الخمسة التي أعقبت جلاء الفرنسيين عن مصر تشعر أن محمد علي كان يلعب بالنار في جرأة وشجاعة يحسد عليها ، وكان الرجل الثاني في القوة الألبانية الموجودة بمصر ضمن قوات الجيش العثماني ،

وقد قام السلطان العثماني بتعيين عدة ولاة علي مصر خلال هذه الفترة واحداً تلو الآخر ولكن لم يصمد أحد منهم وسط الظروف التي كانت تحيط به ، وكان أول والي بعد جلاء الحملة الفرنسية مباشرة هو خسرو باشا ثم أحمد باشا ثم علي باشا الجزائرلي أما آخر والي فهو خورشيد باشا وكل هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سيطرتهم علي مصر وقد يكون السبب في ذلك هو محمد علي نفسه

---

147 تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 256 [وهذه السنة ولد بها نابليون أيضاً]

148 تاريخ الحركة القومية ج2 (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 258

149 محمد علي وأولاده (جمال بدوي) صفحة 33

فيقول عن هذه الفترة المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي (كان محمد علي هو الرأس المدبر للحملة علي خسرو باشا ثم علي أحمد باشا ثم علي علي باشا الجزائرلي ، ولكنه ظل بعيداً عن الميدان وترك عثمان بك البرديسي " من زعماء المماليك " يأتمر بعلي باشا الجزائرلي ويتولي أمر قتله ليحتمل تبعة هذا العصيان الخطير في نظر الباب العالي إذا ما جاء وقت الحساب ، والواقع أن مقتل الجزائرلي كان فيه القضاء علي مظهر السلطة العثمانية في مصر وبذلك تخلص محمد علي من إحدي القوتين اللتين كان يعمل علي سحقهما ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك فبدأ العمل علي التخلص منها وتمهيداً لهذه الغاية ترك لزعماء المماليك السلطة ظاهراً حتي يحملهم تبعة الحكم ومساوئه ويجعلهم هدفاً لسخط الشعب)150 (كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد علي آماله ويتولي سلطة الحكم في مصر فالمماليك قد دالت دولتهم والقوة التركية قد تلاشت من البلاد والوالي التركي في القلعة سجين وليس ثمة قوة حربية سوي الألبانيين " الأرناؤوط " الذين تحت قيادته ولكن محمد علي كان طويل الأناة بعيد النظر فرأي ألا يصل إلي سلطة الحكم بقوة الجند وآثر أن ينتظر حتي يصل إلي تلك الغاية بإرادة الشعب وبذلك يبرهن أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقاً به)151

(وصل خورشيد باشا إلي بولاق في أواخر مارس سنة 1804 وهو خامس من تقلد ولاية مصر – – فأولهم خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ثم أحمد باشا وقد طرد ثم علي باشا الجزائرلي وقد قتل ، ثم خورشيد باشا وفي عهده قامت الثورة)152 ،

(وأسقط في أيدي المماليك ورأوا أنفسهم حيال قوتين ثورة الأهالي من جهة وجنود محمد علي من جهة أخري فلم يجدوا سبيلاً للنجاة سوي الفرار من القاهرة)153

(وكان خورشيد باشا سئ الرأي فاسد التدبير ميالاً إلي الظلم غير مكترث بميول الشعب معتمداً علي القوة الغشوم – – تعددت مظالمه فتدخل العلماء غير مرة لرفعها عن الناس – ففي عهده قوي سلطان العلماء وبلغ نفوذهم أقصي مداه حتي أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته الوالي عن كرسي ولايته وأجلسوا محمد علي مكانه ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل)154 وهكذا ثار الشعب علي الوالي خورشيد باشا بالقوة وكان زعيم الثورة وقائدها هو السيد عمر مكرم الذي أعطي السلطة لمحمد علي بعد أن أخذ منه العهود والمواثيق أن يعدل بين الناس وأن يحكم البلاد بما يرضي الله ، وأرسل الشعب المصري إلي السلطان العثماني يطلب منه تعيين محمد علي والياً علي مصر واستجاب السلطان لرغبة الشعب وأرسل فرماناً بتولية محمد علي حكم مصر ، ولم تتوقف الحرب بين الشعب والوالي إلا عند وصول هذا الفرمان

---

[150] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج2 صفحة 285

[151] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 293

[152] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 294

[153] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 293

[154] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 296

من الأستانة يوم 9 يوليو سنة 1805 م155 ونزل خورشيد باشا من القلعة وهو يعتبر آخر والي تم تعيينه بإرادة السلطان العثماني قبل تولي محمد علي ، أما محمد علي فكان تعيينه بإرادة الشعب وقبل كل هذا وبعده إرادة المولي عز وجل

محمد علي يهادن المماليك :

كان المماليك يسيطرون علي صعيد مصر وكانت الحرب تدور بينهم وبين قوات محمد علي ومن ناحية أخري حاول الإنجليز بالتنسيق مع الدولة العثمانية إعادة المماليك للحكم وتولية محمد بك الألفي الذي كان قد عاد إلي مصر وسيطر علي الفيوم وبالفعل وصل أسطول عثماني إلي الإسكندرية في أول يوليو سنة 1806 ومعه والي جديد علي مصر اسمه موسي باشا ليقوم بالدور الذي كان يقوم به الولاة قبل الحملة الفرنسية أيام حكم زعيم المماليك كشيخ للبلد ، وعند حدوث هذه المشكلة لجأ محمد علي إلي زعماء الشعب مرة أخري ، وبدون الدخول في التفاصيل استطاع زعماء الشعب إلغاء قرار السلطان وتثبيت محمد علي في حكم مصر ، وتفرغ محمد علي للمماليك حيث لجأ معهم إلي أسلوبه الذي برع فيه وهو الدهاء والحيلة (فأخذ يعمل علي فصم عراهم مستخدماً التنافس القديم بين زعماءهم)[156] واستمرت المشاكل والحروب والحيل والمكر بين محمد علي والمماليك وكان أخطرهم عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي ، وكان الألفي قد حاصر دمنهور واقترب من رشيد والإسكندرية في انتظار وصول الحملة الإنجليزية لتتعاون معه كي يصل لحكم مصر والتي جاءت بالفعل سنة 1807م (حملة فريزر) ولكنها وجدته قد مات وفشلت الحملة وتم مقاومتها ببسالة لا نظير لها وكان الألفي قد مات بعد موت عثمان بك البرديسي بحوالي شهرين ، وإليك بعض ما رواه الجبرتي عندما وصف موت الألفي (من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي حتي أنه قال في مجلس خاصته " الآن ملكت مصر " ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأمراؤه وارتفعوا ناحية قبلي فسبحان الحي الذي لا يموت)[157] وكان محمد الألفي هو الوحيد تقريباً الذي لم يجرؤ محمد علي على مواجهته عسكرياً في ميادين القتال وسبب سعادة محمد علي بموته أن من تبقي من أمراء وزعماء المماليك لم يكن علي نفس مستوي الألفي وكان من السهل علي محمد علي أن يستقطبهم لصالحه بإعطاء كل أمير منهم الأمان علي نفسه وعلي ممتلكاته وأن يسكن معزز مكرم في العاصمة وله مكانته من التقدير والاحترام طالما أنه لا يسعي للوصول للحكم ولا يبغي سوي الحياة الكريمة الآمنة ،

---

[155] تاريخ الحركة القومية (عبد الرحمن الرافعي) ج 2 صفحة 314

[156] عصر محمد علي (عبد الرحمن الرافعي) صفحة 43

[157] عجائب الآثار في التراجم والأخبار (الجبرتي) ج 7 صفحة 38

(مذبحة القلعة)

بعد أن كسر محمد علي شوكة المشايخ وقام بنفي كبيرهم السيد عمر مكرم خارج القاهرة بعيداً عن الأحداث قرر أن يتخلص من الأمراء والقادة المماليك الذين أعطاهم الأمان وجعلهم يتركون ساحات القتال وسكنوا بالقاهرة وعاشوا حياة كريمة غير متطلعين للحكم فقام بدعوتهم لحضور احتفال ضخم وفخم بالقلعة لوداع ابنه أحمد طوسون باشا الذي كان متوجهاً علي رأس جيش لمهمة خارج البلاد وكان يوم الجمعة أول مارس سنة 1811م158 (وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك علي محمد علي باشا في قاعة الاستقبال الكبري فتلقاهم بالبشر والحفاوة وقدمت لهم القهوة وشكرهم الباشا علي إجابتهم دعوته وألمع إلي ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا معه في موكبه فأجابوه بالشكر

– وعندئذ نهض المماليك وساروا إلي حيث يأخذون مكانهم في الموكب الفخم)159 وكان الموكب يتواجد به مجموعات من الجنود تسير أمام وخلف مجموعة المماليك ، وكان يمر بمنطقة شديدة الضيق بالقلعة وفي نهايتها باب خرج منه مقدمة الموكب ثم تم إغلاقه علي المماليك والجنود وانهال عليهم ضرب النار من أعلي الأماكن المجاورة لهذا الممر الضيق (لم يستطع المماليك دفاعاً عن أنفسهم ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة علي الحركة أو الرجوع القهقرى أو النزول عن جيادهم لضيق المكان الذي حصروا فيه ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ولم يكونوا يحملون سوي سيوفهم وهيهات أن تعمل السيوف في ذلك الموقف شيئاً فانصب عليهم الرصاص وحصدهم حصداً وجاءهم الموت من كل مكان)160 ، (وهكذا دخل القلعة في صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعاً ولم ينج منهم إلا واحد اسمه أمين بك فإنه كان في مؤخرة الصفوف)161 وقفز بجواده من فوق سور القلعة وتلقي الجواد الصدمة ونجا هو وفر متنكراً إلي أن وصل سوريا فيما بعد ، وكانت المذبحة مؤامرة محكمة من محمد علي استطاع أن يقتل فيها من لم يستطع أن يقتله في ساحات القتال حيث الأماكن المخصصة للقتل الشريف ،

أما ما فعله الباشا فهو غدر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني وقد علق المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي علي هذه المذبحة فكتب الآتي :

(تلك هي الواقعة الشهيرة بمذبحة القلعة ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك – – ولكن مهما بلغت سيئاتهم فإن القضاء عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الإنسانية ولو أن محمد علي باشا استمر في محاربتهم وجهاً لوجه حتي تخلص منهم في ميادين القتال لكان ذلك خيراً له ولسمعته)162 ، ويقول

---

158 عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 108

159 عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 109

160 عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 110

161 عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 111

162 عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 114

المسيو جومار وهو الذي جعله محمد علي باشا مديراً لأول بعثة مدرسية مصرية في فرنسا (لو أمكن محو تلك الصحيفة الدموية من تاريخ مصر لما صار محمد علي هدفاً لأحكام التاريخ القاسية – – ويضيف الرافعي فيقول : ومن جهة أخري فإن الفتك بالمماليك علي هذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق في حالة الشعب النفسية لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب في قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبة علي القلوب فلم يعد ممكناً إلي زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلي نفوس الناس)[163]

<u>عودة إلي موضوع البحث :</u>

وهكذا عزيزي القارئ استعرضنا معاً أحوال المماليك وأحوال مصر بشكل عام منذ ظهورهم لأول مرة علي مسرح الأحداث في مصر وأنواعهم وإنجازاتهم وأبرز الأحداث التي عاصروها والمراحل التي مروا بها إلي أن كانت نهايتهم في مذبحة القلعة ، وبالتالي يمكننا الآن أن نحاول معرفة طبيعة صراعاتهم وكيف تزامنت مع ما حققوه من إنجازات خاصة في عصورهم الأولي التي كانت أزهي عصورهم وهو موضوع هذا البحث ، وسوف نتناول في الفصل القادم إن شاء الله ، أسلوب تداول السلطة في العصر المملوكي

[163] عصر محمد علي (الرافعي) صفحة 114صفحة 115